بحوث المحور الثاني

مظاهر الوقف العلمي في الحضارة الإسلامية

الدور الإيجابي للوقف في المجتمع الإسلامي ماضيًا وحاضرًا

أ.د. نصر سلمان
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة
sotehisouad@yahoo.fr

ملخص البحث

أكّدت هذه المداخلة على أنّ الوقف عموماً من أروع مظاهر الإنفاق في الإسلام، ومن أجمل صور التكافل الاجتماعي، إذ فيه تفتيت الثروة وعدم تجميعها في يد الورثة، لأنّ الوقف في الغالب يكون للورثة ولغيرهم، وذلك من خلال إعطاء نماذج من تاريخ الأمّة الإسلامية الزّاخر بمختلف أنواع ومظاهر الوقف، كما أكّدت المداخلة على أنّ في الأوقاف تأمينا لمورد دائم للجهات الخيرية والدينية العامة، التي ربّما تساهل النّاس في العناية بها والإنفاق عليها كالمساجد والمستشفيات وأوجه المبرّات الأخرى، ذلك أنّ الوقف الخيري إنّما شرّع لمثل هذه الأمور، وأنّه عامة لا يخلو وقف من جهة خير حالا أو مآلا، لأنّ الأوقاف الأهلية يشترط لصحتها أن تؤول إلى سبل الخيرات عند انعدام المستحقين لها وإلاّ لم تصح، إضافة إلى تأمين صدقة جارية يستمر خيرها ويلحق الواقف أجرها لمدّة طويلة، وعرضت المداخلة جملة من التّدابير والمقترحات من أجل تفعيل الوقف في المجتمعات الإسلامية.

إنّ الوقف مندوب إليه بل هو باب عظيم من أبواب الإنفاق المشروعة في الإسلام، وذلك لقوله تعالى: ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: 92]. ولقوله –عزّ وجل–: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ ﴾ [البقرة: 267].

ولحديث ابن عمر –رضي الله عنهما– قال: (أصاب عمر أرضا بخيبر، فأتى النّبي –صلّى الله

عليه وسلّم- يستأمره فيها فقال: يا رسول الله إنّني أصبت أرضا بخيبر، لم أصب قط مالا أنفس عندي منها، فما تأمرني فيها؟ فقال: (إن شئت حبست أصلها، وتصدّقت بها، غير أنّه لا يباع أصلها، ولا يبتاع، ولا يوهب، ولا يورث) قال: فتصدق بها عمر في الفقراء وذوي القربى، والرقاب، وابن السبيل، والضعيف لا جناح على من وليها أن يأكل منها أو يطعم صديقا بالمعروف غير متموّل فيه)[1].

هذا وإن الناظر للمسيرة التاريخية للوقف يجده قد لعب طوال عصور التاريخ دورا كبيرا في التكافل الاجتماعي، وسدّ ثغرات جليلة،تتمثل في إنشاء المساجد، وبناء المدارس، وإقامة المستشفيات،وتعليم الطلاب، ونسخ كتب العلم والقرآن،فضلا عن جعله بابا من أبواب القرض الحسن، ومصدرا لتعويض أهل الأسر المنكوبة عمّا يلحق بهم من نكبات، زيادة عن إيوائه لليتامى واللقطاء،بل تجاوز الأمر ذلك من عنايته بالإنسان إلى العناية بالحيوان،إذ المستقرئ لتاريخ الوقف يجده خصص جزءا من أموال الأوقاف لتطبيب الحيوان.[2]

قال الإمام السيوطي –رحمه الله تعالى–[3]:

إذا مات ابن آدم ليس يجري ⁂ عليه من خصال غير عشر
علوم بثها ودعاء نجل ⁂ وغرس النخل والصدقات تجري
وراثة مصحف ورباط ثغر ⁂ وحفر البئر أو إجراء نهر
وبيت للغريب بناه يأوي ⁂ إليه أو بناء محلّ ذكر
وتعليم لقرآن كريم ⁂ فخذها من أحاديث بحصر

هذا وقد كان سلفنا الصالح يعطي الأوقاف المكانة اللائقة بها، وذلك لما يؤملونه من الحصول على الأجر ورضى الله –عزّ وجل– فهذا عبد الله بن عمرو بن العاص –رضي الله عنهما– كان يقول: (ما يرغبني في الحياة إلاّ الصادقة والوهط، فأمّا الصادقة فصحيفة كتبتها عن رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–، وأمّا الوهط فأرض تصدّق بها عمرو بن العاص، وكان يقوم عليها)[4].

هذا وقد شعر أسلافنا بقيمة الوقف في دفع عجلة الحياة فأنفقوا عليه، وأغدقوا بسخاء من أجل تفريغ طلبة العلم للتحصيل المعرفي والإبداع الفكري، وتحرير العلماء والمفكرين من القيود المانعة

(1) الجامع الصحيح: البخاري، كتاب الوصايا، باب: الوقف كيف يكتب؟ حديث رقم 2620، 3/1019.
(2) المجتمع الإسلامي و فلسفته المالية و الاقتصادية: محمد الصادق عفيفي 70.
(3) الوقف في الفكر الإسلامي: محمد بن عبد العزيز بنعبد الله 1/106-107.
(4) السنن: الدارمي، باب: من رخص في كتابة العلم 1/138.

لهم من قول الحق، وذلك بتوفير الدعم المادي لهؤلاء من أموال الوقف ممّا يجعلهم بمنأى عن أي قيد يمنعهم من قول الحق والجهر به، إضافة إلى الاعتناء بأماكن العبادة ودور العلم، بناء وصيانة ونشرا للعلم وذلك بتنصيب العلماء فيها ورصد مرتباتهم واحتياجاتهم من أموال الأوقاف، وكذا بناء المستشفيات من أموال الأوقاف فكان أوّل من بنى دارا للمرضى في الإسلام هو الوليد بن عبد الملك، كما بنى أحمد بن طولون عام 259هـ أوّل مارستان كبير بمصر، وكان به حمّامان أحدهما للرجال وثانيهما للنساء، وشرط في وقفه لهذا المارستان ألاّ يعالج فيه جندي ولا مملوك، وإذا جاء العليل تنزع ثيابه ونفقته وتوضع عند أمين المارستان ثمّ يلبس ثيابا ويفرش له ويعالج حتى يبرأ، فإذا أكل فروجا ورغيفا أمر له بالانصراف وأعطي ماله وثيابه ... وقد أنفق ابن طولون على هذا المارستان ستين ألف دينار، وكان يركب بنفسه في كل يوم جمعة ليتفقد المرضى، كما جعل في المسجد خزانة شراب فيها جميع الأدوية والأشربة، مع تخصيص طبيب يجلس يوم الجمعة للعلاج.[1]

أقول: يوم كانت أموال الأوقاف تغدق على المستشفيات وتطوير البحث الطبي كان المسلمون في طليعة الطليعة، يقول المستشرق الألماني ماكس مايرهرف: «إنّ المستشفيات العربية، ونظم الصحّة في البلاد الإسلامية الغابرة لتلقي علينا درسا قاسيا مرًّا قد لا نقدِّره حق قدره إلاّ بعد القيام بمقارنة بسيطة مع مستشفيات أوروبا في ذلك الزمن نفسه»[2].

بل إنّ الناظر في تاريخنا الإسلامي يجد سخاء الإنفاق على الأوقاف ماثلا للعيان، ومصداق هذا الإغداق والعطاء ذلكم الوقف الذي رصد في مدينة دمشق كي يموّل الصحون التي تتكسر بيد العبيد والمماليك فيقوم الوقف باستبدال الصحن المكسور بصحن جديد، وقد علّق ابن بطوطة على ذلك بقوله: «وهذا من أحسن الأعمال، فإن سيد الغلام لا بدّ له أن يضربه على كسر الصحن، أو ينهره، وهو أيضا ينكسر قلبه، ويتغيّر لأجل ذلك، فكان هذا الوقف جبرا للقلوب، جزى الله من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا»[3]، كما وقف صلاح الدين الأيّوبي -رحمه الله تعالى- وقفا لإمداد الأمّهات بالحليب اللازم لأطفالهن، إذ جعل في أحد أبواب قلعة دمشق ميزابا يسيل منه الحليب، وميزابا آخر يسيل منه الماء بالسكر تأتي الأمّهات يومين في كل أسبوع فيأخذن لأطفالهن

(1) الوقف في الفكر الإسلامي: محمد بن عبد العزيز بنعبد الله 1/148-149.
(2) المرجع نفسه 1/158.
(3) خدمات الوقف الإسلامي و آثاره في مناحي الحياة: رعد محمود أحمد البرهاوي 157.

ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر.[1]

بل تجاوز الأمر حدّه في الإنفاق إلى وقف القصور الفخمة والمتنزهات للفقراء، فهذا نور الدين زنكي لمّا رأى بربوة دمشق قصورا عديدة للأغنياء حزّ في نفسه أن لا يقدر فقراء المسلمين على التمتّع بالقصور الفارهة التي يتنعّم فيها أصحاب الأموال من الأغنياء، فبنى للفقراء قصرا غاية في الجمال والأناقة والفخامة ووقفه على فقراء المسلمين حتّى لا يشعروا بالدونية، وقد خلّد ذلك تاج الدين الكندي بقوله:

إنّ نور الدين لمّا أن رأى ⁂ في البساتين قصور الأغنياء

عمر الربوة قصرا شاهقا ⁂ نزهة مطلقة للفقراء[2]

كما قام بوقف المتنزهات منصور مولى عيسى بن جعفر العباسي الملقب بزلزل الذي أنشا بركة في مدينة بغداد حملت لقبه، وقد كانت آية في الجمال سبّلها على الفقراء والمساكين يتنزّهون فيها ولروعة جمالها قال فيها نفطويه:

لو أنّ زهيرا وامرأ القيس أبصرا ⁂ بصدق لما تحويه بركة زلزل

لما وصفا سلمى ولا أمّ سالم ⁂ ولا أكثرا ذكر الدخول فحومل[3]

ولم يتوقّف الإنفاق على الأوقاف عند هذا الحدّ بل تجاوزه للاعتناء بذوي الاحتياجات الخاصة، فلقد أنشأ أسلافنا أوقافا يدرّ ريعها على ذوي الاحتياجات الخاصة من المسنين والعميان وأصحاب الإعاقات المختلفة.

يروي الأخوان الفرنسيان جان وجيروم تارو في رحلتهما للمغرب أنّ بمدينة مراكش ملجأ لا يوجد مثله في الدنيا بأسرها، وهو بناء يكاد يكون بلدة، وله ساحة يكاد الطرف لا يأتي على آخرها، وفي هذا الملجإ ستّة آلاف أعمى ينامون ويأكلون ويشربون ويقرؤون ولهم أنظمة وقوانين وهيئة إدارة وصندوق.[4]

هذه نماذج تجلي خدمات الوقف الجليلة في ماضينا المليء بالأمجاد أردنا التنبيه بها على غيرها، وإلاّ فإنّ الوقف في العصور الذهبية شمل دور العبادة المختلفة،ومراكز العلم المتنوعة كالمدارس، ودور القرآن، والحديث، ودور الضيافة، وتزويج الشباب، ودور الأيتام واللقطاء والأرامل والمطلقات،

(1) الوقف في الفكر الإسلامي: محمد بن عبد العزيز بنعبد الله 149/1.
(2) بشير علي كرد: خطط الشام 109/5.
(3) خدمات الوقف الإسلامي و آثاره في مناحي الحياة: رعد محمود أحمد البرهاوي 152-153.
(4) الوقف في الفكر الإسلامي: محمد بن عبد العزيز بنعبد الله 140/1.

بل تجاوز الأمر إلى وقف الحلي والملابس التي تلبس في الأفراح والمناسبات، وإقامة الجسور والقناطر، وحفر الآبار وإجراء الأنهار، وتغسيل وتكفين الموتى،وغيرها من الأشياء التي شملها الوقف في ذلكم الماضي المجيد.

هذا الدور الفعّال للوقف نريد تفعيله في الحاضر وذلك من خلال الآتي:

1- تفعيل دور المساجد ووسائل الإعلام في حث الناس وتشجيعهم على الوقف وبيان فوائده الدنيوية والأخروية على الأفراد والمجتمعات المسلمة.

2- إصدار تعليمات صارمة لاسترداد الأملاك الوقفية التي عبثت بها أيادي من لا يخافون الله ولا يفرقون بين الحلال والحرام.

3- تعيين الأمناء والثقات وأهل العلم والكفاءة في الإشراف على أموال الأوقاف حتى لا يعبث بها أصحاب النفوس الضعيفة أمام سلطان المال وسطوته.

4- بث ثقافة التعفّف من تحصيل أموال الوقف بغير حق،وهنا نسجل موقفا يعد قمة في التعفف لشاعر النيل حافظ إبراهيم لمّا ذهب لزيارة أحد أصدقاء شبابه وقد صار مشرفا على أوقاف كثيرة فمنعه الحراس والحجاب من لقائه فأرسل إليه بهذه الأبيات:

قل للنقيب لقد زرنا فضيلته ⁂ فذادنا عنه حرّاس وحجّابُ
قد كان بابك مفتوحا لقاصده ⁂ واليوم أوصد دون القاصد البابُ
هلاّ ذكرت بدار الكتب صحبتنا ⁂ إذ نحن رغم صروف الدهر أحبابُ
لو أنّني جئت للبابا لأكرمني ⁂ وكان يكرمني لو جئته البابُ
لا تخش جائزة قد جئت أطلبُها ⁂ إني شريف وللأشراف أحسابُ

إشارة إلى أنّ الصدقة لا تعطى للأشراف.[1]

5- التأكيد على تجاوز الأوقاف للجوانب الاجتماعية لتشمل الأوقاف العلمية حتّى تعود للعلم مكانته الرائدة كما وصفها سلطان الكتاني يوم كانت المدارس الوقفية تخرج العلماء الربانيين بدمشق وتحلّ مشاكل الناس وتجيب عن أسئلتهم.

ومدارس لم تأتها في مشكل ⁂ إلاّ وجدت فتى يحلّ المشكلا
ما أمّها مرء يكابد حيرة ⁂ وخصاصة إلاّ اهتدى وتموّلا
وبها وقوف لا يزال مغلها ⁂ يستنقذ الأسرى ويغني العيّلا[1]

(1) الوقف في الفكر الإسلامي: محمد بن عبد العزيز بنعبد الله 59/1.

6- الشعور بالمسؤولية الكبيرة في ميدان فعل الخير لاسيما ما يتعلق بالبذل من أجل إحياء الأوقاف التي تعود بالنفع الكبير على عموم النّاس، ولا شك أنه بمثل هذا يكون المسلم حاملا لهموم أمّته.

كما نقول الحفاظ على أموال الوقف داعين لإنشاء أوقاف يدعمها الأغنياء بأموالهم،والعلماء بأفكارهم،والدولة بقوانينها المنظمة لذلك.

كما أقول للمعتدين على الوقف ما قاله الشاعر راشد حسين في قصيدته التهكمية بالاستعمار البريطاني ومن بعده الإسرائيلي الذين صادروا أموال الوقف

واعتدوا عليها بالقدس الشريف.

الله أصبح غائبا يا سيدي ⁂ صادر إذن حتّى بساط المسجد
وبع الكنيسة فهي من أملاكه ⁂ وبع المؤذن في المزاد الأسود
حتّى يتامانا أبوهم غائب ⁂ صادر يتامانا إذن يا سيدي
لا تعتذر من قال إنّك ظالم ⁂ لا تعتذر من قال إنّك معتدي
حرّرت حتّى السّائمات غادة أن ⁂ أعطيت إبراهام أرض «محمد»
أنا لو عصرت رغيف خبزك في يدي ⁂ لرأيت منه دمي يسيل على يدي(2)

وفي خاتمة حديثنا عن الوقف نقول:

إنّه من أروع مظاهر الإنفاق في الإسلام، ومن أجمل صور التكافل الاجتماعي، إذ فيه تفتيت الثروة وعدم تجميعها في يد الورثة، لأنّ الوقف في الغالب يكون للورثة ولغيرهم، وهو وإن كان لهم فلن يكون إرثا عنهم بعد وفاتهم ولكن لمن بيّنهم الواقف، إضافة إلى تفويت الفرصة على الجاهلين من الورثة الموقوف عليهم في إضاعة ما ورثوه لسوء تصرّفهم، حيث يمنعون من بيع الموقوفات والتصرّف بأعيانها، إذ لهم فقط الانتفاع المعتاد بها مدّة الحياة بحسب شروط الواقف، كما أنّ في الأوقاف تأمينا لمورد دائم للجهات الخيرية والدينية العامة، التي ربّما تساهل النّاس في العناية بها والإنفاق عليها كالمساجد والمستشفيات وأوجه المبرّات الأخرى، ذلك أنّ الوقف الخيري إنّما شرّع لمثل هذه الأمور، وأنّه عامة لا يخلو وقف من جهة خير حالا أو مآلا، لأنّ الأوقاف الأهلية يشترط لصحتها أن تؤول إلى سبل الخيرات عند انعدام المستحقين لها وإلاّ لم

(1) سامي محمد الصلاحات: دور الوقف في مجال التعليم و الثقافة في المجتمعات العربية و الإسلامية المعاصرة دولة ماليزيا المسلمة نموذجا، ص 8.
(2) الوقف في الفكر الإسلامي: محمد بن عبد العزيز بنعبد الله 256/1.

تصح، إضافة إلى تأمين صدقة جارية يستمر خيرها ويلحق الواقف أجرها لمدّة طويلة وربّما إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو من أهمّ ما يفيد الإنسان بعد موته لقول النّبي –صلّى الله عليه وسلّم–: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له) (1)

هذا فضلا عن تلبية رغبة الواقف في نقل الاستفادة من أمواله لمن يريده ويحبه.(2)

يضاف لهذا كله أنه سبيل لعزة العلماء والدعاة،فلقد أسهمت الأوقاف في عزتهم أيام كانوا يحصلون مصادر أرزاقهم منها،فلم يكن لأحد عليهم سطوة مهما كان سلطانه،أو مكانته،وذلك لأن الاستقلالية المالية التي وفرتها لهم الأوقاف حمتهم من أن يبيعوا دينهم بدنياهم،وما أجمل قصة ذلك الشيخ الأزهري الذي مرّ به الخديوي إسماعيل والشيخ جالس يدرّس لتلاميذه مادًّا رجله، فلم يقطع درسه، ولا ثنى رجله، وفي اليوم الثاني أرسل إليه السلطان بصرة فيها مال مع خادمه فردّها قائلا : أيها الخادم عد لسيدك فقل له : إنّ الذي يمدّ رجله لا يمدّ يده[3].

وفي الأخير نقول:

ألا أيّها المخلصون الكرام	⁂	هلمّوا لننفض هذا الركام
ونحيي أوقاف أسلافنا	⁂	ونرجعها من أيادي اللئام
ونسعى لتثميرها جاهدين	⁂	لكي يحصل المقصدُ المسترام
بنشر المحامد في قومنا	⁂	وبذل المزيد من الاهتمام
بكل القضايا التي تخدم	⁂	ديانتنا أو بنينا الكرام
فتخلو أحياؤنا من فقير	⁂	ويعلو مساجدنا الابتسام
وتزخر بالمكتبات الجليلة	⁂	فيقهر نورُ العلوم الظلام
ويرجع دور الزوايا الأصيل	⁂	ويخرج أعلامها كالسهام
وتبنى المشافي بكل المشاتي	⁂	لنقضي على سبب للسقام
ونبني دورا تضم الغريب	⁂	ونحيي تاريخنا المستهام
ألا أيّها المهتدون أفيقوا	⁂	فإنّه بعد الحياة الحمام

(1) – مسلم : الجامع الصحيح , حديث رقم : 1631 , كتاب : الوصية , باب : ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته , 3 / 1255 , و أبو داود : السنن , رقم : 2880 , كتاب : الوصايا , باب : ما جاء في الصدقة عن الميت 3 / 117 .

(2) الأحوال الشخصية: أحمد الحجي الكردي 201–202.

(3) محمد العوضي سلام : من الظلمات إلى النور ص 32 – 57 .

وردوا لأملاك أوقافنا ⁂ ولا تشغلوا في الدنى بالحطام
فأكل الحرام يصدّ الدّعاء ⁂ وينذر آكله بالسقام
وأدعو وسائل إعلامنا ⁂ لنشر الفضائل بين الأنام
وتوعية المسلمين بوقف ⁂ يبث التكافل يجلي الغمام
ودور كبير على عاتق ⁂ أئمتنا المخلصين العظام
بإيقاظ أمّتنا من سباتٍ ⁂ وتذكيرها بصنيع الكرام
من الموقفين نفائس مال ⁂ نظير جنان بدار الدّوام
إذا لم نحافظ على وقفنا ⁂ خسرنا المبادئ والاحترام
ودسنا على رغبة الموقفين ⁂ فعنّا مع الميّتين السّلام[1]

وفي الختام :

نحسب أننا قد بينا بعض النتف عن الدور الإيجابي للوقف في تاريخنا الإسلامي التليد، وكشفنا النقاب عن بعض جوانبه المشرقة، سائلين المولى تبارك وتعالى أن ينفع بهذه المداخلة، وأن يجعلها في ميزان حسناتنا إنه ولي ذلك والقادر عليه،وصلى الله وسلم وبارك على الرحمة المهداة،والنعمة المسداة،وعلى آله الأخيار، وأصحابه الأطهار،سائلين الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العليا لملتقاكم النجاح والرشاد،وللقائمين عليه التوفيق والسداد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(1) هذه الأبيات لصاحب هذا البحث الأستاذ الدكتور: نصر سلمان.